الفصل الثانى

مصدر التوجيه

اذا كانت الغرائز فى الانسان من جانب تنازع العقل فيه من جانب آخر ، فأى ضمان يحفظ التوازن بين النوعين ؟ .

لأن كل نوع منهما اذا استأثر بالتأثير ، دون مشاركة الآخر اياه فيه ، وصل بالانسان الى وضع لا يتفق وطبيعته .

... فاذا استأثرت الغرائز عجز الانسان عن تحقيق السيادة فى عالم وجوده ،

... واذا استأثر العقل عجز الانسان عن تحقيق بقائه الشخصى والنوعى معاً .

ولا يرفع التنازع فى طبيعة الانسان ، ويحفظ التوازن بين النوعين من القوى فيه ... سوى **التوجيه** . اذ أن التوجيه عامل مكون للحكم ولقوة أخرى فى الانسان ، تباشر تنفيذ ما يستقر عليه حكم العقل ، وهى قوة الارادة ، التى من شأنها أن تحيل الرأى الى عمل ، والأمل الى حقيقة .

فوظيفة الغرائز فى مسيرها فى الطبيعة الانسانية تثير الرغبات والشهوات ، ثم تلح على الانسان فى السعى لتحصيلها . والعقل بعد ذلك فى مسيره فى تلك الطبيعة ينظر فى هذه الرغبات والشهوات ، ويحلل عناصرها ، ويجمع الوسائل لتحصيلها ليختار واحدة منها أو أكثر ، لتحقيق ما يراه ممكناً ، أو جديراً ، أو ماله أولوية من بين هذه الرغبات والشهوات .

... والعقل اذ ينظر ويحلل ، ويجمع الوسائل ويرجح ، يقوم بعملية التفكير . وتنتهى هذه العملية بالارادة ، التى تنقل الفكر ، والرأى ، والحكم ، الى حيز العمل والوجود الواقعى .

... وحكم العقل ، وعمل الارادة معاً ، كلاهما يرتبط بالتوجيه فى مجالات الصواب والخطأ ، والاستقامة والاضطراب . اذ التوجيه هو الذى يحدد الاطار الذى يدور فيه العقل بتفكيره ، وهو كذلك الذى يقدم الوقائع التى يستند عليها فى هذا التفكير .. وهو أخيرا الذى يختزن حصيلة التجارب السابقة ويوفرها ، للرجوع اليها عند حاجته اياها .

... والعقل اذن قوة للموازنة والترجيح ... وصحة حكمه : ان توقفت على مدى استيعابه ومدى عمقه فيما يزن وفيما يرجح ، تتوقف أيضاً على سلامة ما يوجه به .

... والارادة : ان كانت قوة للتنفيذ فى الانسان ، فصحة ما تحمل عليه من تصرف أو سلوك فى المجال العملى : ان توقف على صلابتها ... يتوقف كذلك على صحة الحكم وصحة التوجيه نفسه .

واذن : فالتوجيه ، وان لم يكن عاملا فطرياً فى الانسان كالغرائز والعقل ... فانه يؤدى دوراً رئيسياً فى حياة الانسان . واليه فى النهاية يرجع تعبير الانسان فى سلوكه وتصرفه ، عن مدى منزلته فى الانسانية .

والانسان ، كانسان تؤثر فيه الغرائز ، والعقل ، والارادة ، والتوجيه . وعمله الذى يتسم بطابع الانسانية يرتبط بالدور الذى تؤديه كل واحدة من هذه القوى تأدية سليمة . وعمله بالتالى الذى يجافى الانسانية ، يأتى نتيجة لعدم أداء احدى هذه القوى أو بعض منها ، دورها طبقاً للوضع السليم لها .

والتوجيه السليم الآن ضرورة حتمية للانسان ، كى يبلغ مستوى انسانيته فى التفكير ، والتطبيق .

فأى مصدر للتوجيه يؤدى هذا الدور ؟ .

الفلسفة فى التوجيه :

ألا يمكن للفلسفة أن تقوم بدور التوجيه السليم ؟

ألا يمكن لحصيلة الفكر الانسانى ، فى تاريخه الطويل .. أن يعين الانسان على اختيار الحكم الصحيح ، وتطبيق السلوك السوى ، واتخاذ الموقف الرشيد ؟ .

ان الفلسفة مجموعة من الاتجاهات الفكرية ، والمدارس العقلية المختلفة ، يتوفر عليهـا علماء يحاولون فى تفكيرهم أن يجنبوا أنفسهم التأثر بالأهواء والعوامل البيئية المحلية ، ويحملوها على التجرد لخير الانسانية ، فى عهود مختلفة وفى مجتمعات عديدة ، وفى أجواء متنوعة .

لماذا لا تكون الفلسفة مصـدر توجيه صحيح ، وهى خلاصة العقل المجرد ، الذى ابتغى الخير وحده ؟

... ان الفلسفة تدعى ذلك منذ نشأت ، وتدعى ذلك حتى الآن ... تدعى تجردها فى التفكير ... وتدعى أيضاً سلامتها فى التوجيه ... وخاصمت فى هذا الادعاء مصادر توجيه أخرى : كالدين .. وما زالت تخاصمه . وفى خصومتها للدين وصلت الى أن أنكرت قيمته ، بعدما تأثرت به ، وبعد أن حافظت على كثير من مبادئه ، منذ عهد الاغريق حتى فجر النهضة الأوربية ، وفى الاتجاهات المثالية ... الى الاتجاهات المادية ... حتى الالحادية .

... الى أى مدى كان صدق الفلسـفة فى ادعائها التجرد من التأثر بالهوى ، وبالرغبات الخاصة ، وعوامل البيئة المحلية ، واستهدافها العقل الانسانى العام ، وما يخططه ويهدى به البشرية ؟

ان التجرد فى التفكير من كل عوامل التأثير ، عدا ما يتصل بالانسـانية خالصة ، .. يقتضى وحدة الاتجاه فيه ، ووحدة النتائج ، ووحدة التوجيه ... ويقضى أن تكون هناك فلسفة وليس أنواعاً منها ، وربما متناقضة ... يقتضى أن يكون هناك معيار واحد للتقييم ، وليست معـايير مختلفة ... يقتضى أن يكون ادراك الوجود عن طريقها ، وبالأخص : ادراك الانسـان ، ادراكاً يسير فى خط مستقيم ، وليس فى خطوط غير متوازية .

بم تفسر الفلسـفة اختلاف مدارسـها : من ميتافيزيقية ، وطبيعية ، ولاأدرية ، ومنطقية ، وبصرية ، ومادية ، ومثالية ، والحادية ، والهية ؟

وبم توضح اختلاف الفلاسفة فيها : بين وضعيين واقعيين ، ومثاليين انسانيين ، وأصحاب نزعة اجتماعية اشتراكية ، وأخرى فردية حرة ، ومن لهم ميول جبرية ، وأخرى اختيارية ، ومن يرى القيمة ، والحق ، والخير .. فى العزوف عن هذه الحياة الدنيا ، ومن يرى ذلك ... فى السعى الى الدنيا وحدها والحرص على متعها ؟

ان الاختلاف فى المدارس الفلسفية ، وفى اتجاهاتها يعبر عن اختلاف العوامل التى يقع التفكير تحت تأثيرها . والاختلاف فى الميول والنزعات بين

الفلاسفة ، يدل أيضاً على اختلاف البيئات التى عاشوا فيها ، وتأثروا بجوها ومحيطها .

والاختلاف هنا وهناك ، أمارة على أن الفكر الانسانى لم يستطع أن يرتفع فوق مستويات البيئات ، وفوق العوامل التى تدعو الى الاختلاف فى آثارها ونتائجها .. لم يستطع أن يتجرد من التأثير ، فيكون حراً ... فيما يصل اليه من معايير للتقييم .

وتبعاً لذلك : تكون لاتجاهات المدارس الفلسفية قيم محدودة ، واعتبارات لا تأخذ الطابع العام ... وتكون لنزعات الفلاسفة أيضاً ، هذه القيم والاعتبارات الخاصة المحدودة ..

ومعنى ذلك : كل مدرسة فلسفية : اعتبارها مرتبط بالعوامل التى أثرت فيها ... وكل فيلسوف فى نزعته يقدر حسب ما عاش فيه ، وتأثر به فى نزعته وميله .

ولذا لا ينبغى لأية مدرسة ، أو لأى فيلسوف ، أن يدعى الصلاحية العامة لما أتى به من تفكيره ، من حيث نفعه وافادته للبشرية ... من حيث هى بشرية :

لأن البشرية لها خصائص وسمات مشتركة ، لا توجد فى مجموعة دون أخرى ، ولا فى جنس دون آخر ، ولا فى وطن ومكان دون وطن ومكان آخر .. بل توجد فى الجميع بدون استثناء . والبشرية من حيث هذه الخصائص المشتركة : ما يعتبر هنا لصالحها يجب أن يغطى جوانبها جميعاً ، دون أن يكون قاصراً نفعه على بعض من الناس دون بعض آخر منهم .

ان التنافر فى وجهات النظر بين المدارس الفلسفية ، وكذا بين الفلاسفة فى نزعاتهم من شأنه : أن يضعف من قيمة التوجيه ، لو جعلت الفلسفة مصدر توجيه ... ومن شأنه أن يفرق بين سبيل التوجيه وغاياته فى المجتمع الانسانى بصفة عامة . وليس من مصلحة الانسانية أن تنتشر فيها بذور الفرقة ، باسم التوجيه وبدافع منه .

.. ماذا يكون الوضع فى البشرية : لو نشئت مجموعة من الناس أو المجتمعات على أساس من المادية ... وأخرى على أساس من الميكيافيلية ... وثالثة على أساس النفعية . ورابعة على أساس المثالية .. وخامسة على أساس تبعية الحرية للمجتمع . وسادسة على أساس تبعية حرية المجتمع لحرية الأفراد ... وسابعة على أساس من نزعة العزوف عن متع هذه الحياة .. وثامنة على أساس من نزعة الحرص على هذه المتع

وتحصيلها ، دون رعاية لحرمة ، أو لوضع فرد آخر فى الحياة ... وهكذا ... ؟

ان الوضع عندئذ : هو وضع الخصومة والعداء ، والطائفية ، ونزعة الحقد التى تصحبها . وهل من سلامة التوجيه أن تزرع العداوة والبغضاء فى النفوس عن قصد ، وفى رعاية لها ؟

ان التوجيه عندئذ يبعد الانسان عن غايته ، التى هى : السلام والاطمئنان .. ويحول بين العقل الانسانى وأداء وظيفته ، وهى الحكمة التى هى مصدر الخير . ولا خير وراء السلام والاطمئنان فى العلاقات البشرية .

ان هناك عداوات .. وهناك أحقاداً فى النفوس قائمة فعلا .. ولكن فرق أن تغرس الأحقاد عن قصد انسانى باسم مصلحة انسانية : هى التوجيه .. وأن تكون هذه الأحقاد موجودة كرواسب بسبب خطأ الانسان ، أو بسبب سوء تصرفه أو لمصلحة شخصية مستترة ، تعمل الارادة الانسانية الخيرية على ازالتها ، أو اضعافها على الأقل فى المجتمع البشرى .

ان الصراع بين الشرق والغرب الآن : سببه اختلاف الفلسفة فى اتجاهها ، واختلاف نزعة الفلاسفة فيما يقصدون اليه .

.. ان الشيوعية الدولية ، والنظام الديمقراطى الغربى قسما العالم الانسانى الى كتلتين متخاصمتين ، لا تثق احداهما بالأخرى ، بل تتربص كل منهما بالثانية .

.. ان الأيديولوجية الاجتماعية ، والأخرى الفردية ، حرما العالم الانسانى فى عصرنا اليوم من : اطمئنان النفس ، وبالأحرى سببا له : القلق والاضطراب ، من أجل المصير والمستقبل ، ووجها الانتاج البشرى الى التخريب والتدمير ، وأرغما « العلم » على أن يعبد الطريق لفناء الانسانية كلها ، بدلا من أن يسعى لرفاهيتها واسعادها بالسلام ، وتوفير أسباب الحياة الهادئة .

ان هاتين الأيديولوجيتين سخرا الانسان وعقله ، وتجاربه لخدمة الشر ، وسخرا منه بقدر ما سخراه . ولكل منهما أنصار وأعوان . والانسانية تتحسس نور الأمل فلا تراه ، وتفتش عن الاستقرار فى ركن ما فلا تجده والانسان الآن يعيش من أجل لقمة العيش ، وقلما يحصلها فى يسر ، بعد أن كان يعيش من أجل رسالته الخاصة به .

ان الانسان بسبب الصراع بين الفلسفتين فى وقتنا الراهن ، أصبح يعبأ للاعتداء ، بعد أن كان يعبأ لرفع العدوان ... انه أصبح يطأطىء هامته الى

بطنه وفرجه ، بعد أن كان يرفعها شامخا ومترفعا عن نصفه الأدنى كله ، وعن ما يشتهيه ويطلبه من أجل البطن والفرج .

... انه أصبح يساق بسبب الفقر ، والجوع ، والحاجة ، فى نظـام فلسفى ... بينما أصبح يستذل من أجل محافظته على بقائه ، بحكم الغريزة والفطرة فى نظام فلسفى آخر .

من يسلم : بأن أحد الاتجاهين الفلسفيين : اتجاه الشيوعية ، أو اتجاه الديمقراطية ... يصبح وحده مصدرا للتوجيه للبشرية ، سوى أصـحاب الاتجاه وأتباعه ؟

من يرى فى المجتمع الانسانى العالمى ان يبقى كلا الاتجاهين فى وضـع علاقتهما الراهن ، سوى المنتفع بالخصومة والعداوة بينهما ؟ .

من يعرف مصير البشرية فى مجال هـذه الخصـومة ، سـوى المنجم أو الكاهن ؟ ... من يعرف مصير هـذه الانسانية ، مع تقدم العلم خطوات فى يومه ، ثم فى غده ، عنه فى أمسه ... فى سـبيل زيادة الخوف والقلق ، والدمار والهلاك ؟

ان الحرب الباردة بوسائل الاعلام المختلفة بين الأيديولوجيتين : الغربية والشرقية فى عصرنا القائم ، طوعت الانسان بعد أن سلبت ارادته ، بحيث أصبح يتردد بين اليمين واليسـار ، دون أن يكون له ايمان بواحـد منهما ، أو دون أن تكون له رواسب من ايمان بأيهما لا يستطيع الكشف عنه والجهر به .

... انها جعلته : اما عديم الايمان والارادة ، أو منافقاً . وكلا الوضعين للانسان عنوان على ضعفه ومذلته .

ان ما ينفق فى اذكاء هذه الحرب الباردة فى أى بلد تتبع احدى الكتلتين ، أو تتشيع لها ، يكفى للاسهام مساهمة ايجابية فى خير المجتمع الذى تقوم فيه .

... ان ما ينفق على الاعداد للحرب القادمة ، أو على الوقاية منها ... ان ما ينفق على الاعداد المتجدد المستمر لهذه الحرب ، كفيل بابعاد شـبح الجوع ، والفقر ، من المجتمع الانسانى كله .

... ان نداء العقل الانسانى اليوم بوجوب تنظيم النسل ، اتقاءاً للكوارث المرتقبة من زيادة عدد السكان فى العالم غداً ... دليل على : أن نهاية الصراع بين الأيديولوجيتين بعيد المدى من جانب ، وعلى أن العقل فى هذا النداء كان متأثراً ببعض العوامل المحلية ، هى عـدم مواجهة الدخل القـومى للزيادة التدريجية المستمرة فى عدد السكان فى بلد ما ، من جانب آخر .

لأن الدول التى لديها امكانيات واسعة فى الثروة القومية لا تطلب هذا التنظيم ، ابقاءاً على قوة المنافســـة فى الصراع الأيديولوجى الحاضر . وان استخدمت بعض وسائل هذا التنظيم فى مجتمعات فلدواع اجتماعية تقليدية ، أكثر منها اقتصادية .

فتعدد المذاهب الفلســـفية اذن ... أمارة على **عدم التجرد فى التفكير لصالح البشرية .**

... وهو أمارة أيضاً على : عدم الصلاحية للأخذ بواحد منهـــا ، فى جميع المجتمعات الانسانية .

... وفى الوقت نفسه مصدر للشقاق والخصومة ، وجر ويلاتهما على الانســـانية . ودفع أى واحد من هـــذه المذاهب بقوة الســـيطرة المـــادية أو الاقتصادية معناه : اشتباك البشرية فى حروب مســـلحة أو حروب باردة تســـتخدم الكذب والتمويه والوعود اللامعة ... وترتكب من اللاأخلاقيات ما يذهب بقيمة الانسان فى الانسان .

... ان نزعة الفكر الأوروبى منذ القرن الثامن عشر ، الى استقلال الانسان فى التوجيه ، واتجاهه فيما بعد منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى حماية هذا الاستقلال ، بتحويل الفكر الانسانى الى فكر عقائدى ، يدفع الى الايمان به ، فالطاعة اليه ... ان هذا أو ذاك ، قد عقد النزاع بين أيديولوجيتين : الشيوعية ، والديمقراطية فى وقتنا الراهن ... وصعب الملاءمة بينهما ، أو ترك أمرهما الى ارادة الفرد واختياره .

ومن هنا كان : التشبث فى الصراع،والعناد فى الخصومة،وجر الانسانية كلها الى الهاوية . وبحكم تعدد المجتمعات ، والبيئات الانسانية ... وبحكم تأثر الأفراد بمجتمعاتهم ، وبيئاتهم ، وبتاريخ هـــذه المجتمعات والبيئـــات ، وبأحداثها التى تقع وتؤثر فيها ... لا يوجد تفكير انسانى لمفكر فى مجتمع ، يتفق مع تفكير مفكر آخر فى مجتمع وبيئة أخرى . وقد لا يتفق أيضاً مع تفكير مفكر آخر فى نفس المجتمع والبيئة .

ولذا لا تصلح الفلسفة بحكم طبيعتها لأن تكون مصدر توجيه عام ... وبالتالى لا تعين على تحقيق الســـلام العـــالمى ، وعلى اقامة العلاقات بين المجتمعات على أسس مشتركة بينها .

على أنه يضاف الى ذلك أيضاً : مما يحول دون الصلاحية العامة للتوجيه الفلسفى ، أن الفيلسوف صاحب التوجيه ، أو صاحب المدرســـة الفكرية ، يخضع بحكم تفلسفه الى النقد الفكرى . والنقد الفكرى ، ان كان مصدر متعة

للخواص من أصحاب الثقافات ، فانه يعوق التبعية العامة للاتجاه الفلسفى . وعندئذ تصبح الفلسفة ضربا من ضروب المتعة ، أكثر منهـا طريقا يتبع ، أو وصايا : تطاع ، وتنفذ فى التطبيق العملى .

... توجيه الصحافة ووسائل الاعلام :

هل تنجح الصحافة ووسائل الاعلام الأخرى فى أن تكون مصدر توجيه ، يعطى العقـل الانسـانى جـو الحـكم الصحيح ، والارادة النافـذة ، والسلوك السليم ؟ .

هل تتلافى الصحافة ضعف الفلسفة والأسباب التى أفقدتها صلاحية التوجيه الانسانى ؟

ان الصحافة ، والاذاعة ، والتلفزيون ، والسينما ، والمسرح : أجهزة للنقل ، ووسائط لاغير . فهى بذاتها لا توجه . وانما وراءها الانسان ... يحملها على نقـل ما يريد من الأفكار والاتجاهات ، والمذاهب . واذن يعود الأمر الى ما يريده الانسان ويرغب فى نشره وذيوعه .

وفى وقتنا الحاضر تعيش الصـحافة ، ووسـائل الاعلام الأخرى ، فى الصراع المذهبى بين الشرق والغـرب ... وفى الخـلاف بين الأيديولوجية الشيوعية ، والأخرى الديمقراطية . ولا يمكن أن تبتعد عن جوه بحال ، لأن نظام الحكم فى كل من الكتلتين ... يحتم الاستعانة بها فى الخصومة ، وفى نقل وجهات النظر المعينـة .

... ففى نظام الحكم الديمقراطى الغربى : تقوم شركات لهذه الأجهزة ، وتشرف على نشاطها فى الغلة والربح . وهى لا تغل ولا تربح ، الا اذا كانت فى خدمة رأس المـال من جانب ، وفى خدمة رغبات الجمهور وفيما يثير ميوله من جانب آخر .

... وباعتبار كونها فى خدمة رأس المـال تكون متحزبة لاحدى وجهتى النظر ، وتفقد بتحزبها هذا ... الصلاحية العامة للتوجيه .

... وباعتبار كونها فى خدمة رغبـات الجمهور واثارة ميوله ، تكون متحزبة لاحدى القوتين الفطريتين فى الانسان . وهى قوة الغرائز . وصلاحية التوجيه مرتبط بخلق الجو السليم لممارسة العقل وظيفته . فاذا كان هـذا التوجيه أقرب الى جانب الغرائز ، فمعنى ذلك : انه فقد الصـلاحية . لأن العقل عندئذ لا يصل الى نتائج سليمة فى حكمه وفى تفكيره .

وهذه الأجهزة الاعلامية فى النظـام الديمقراطى الغربى فى اضطرارها

الى التجاوب مع اتجاه الرأسمالية مرة ، ومع ميول الجماهير مرة أخرى ، ليس فحسب ضماناً لمبدأ الربح ، وانما مع ذلك لاستغلال المال بالصورة التى تلتزمها الرأسمالية فى استثمارها للمال ، وهى : وفرة فى الربح ، وقلة فى المجهود ، ومال ، ولا : انسانية .

وميول الجماهير ليست هى ميول الخاصة من المثقفين . وميول الجماهير يتحكم فيها عادة : الدفع الغرزى ، وليس الفكر وريادته . ومن ثم : فالاستجابة اليها تنطوى على ما ينفس عنها ، أو يزيد فى تحريكها واثارتها .

... وفى نظام الحكم القائم على الأيديولوجية الشيوعية ، لا تحرك أجهزة الاعلام المختلفة الا فى خطوط سير معينة ، وهى خطوط الأيديولوجية نفسها . ورسالة هذه الأجهزة مع تعددها لذلك ... واحدة ، وان اختلفت فى صورة الأداء .

... تحاول فى النظام الأيديولوجى الماركسى اللينينى أن تخلق وثناً من أشخاص الزعماء ... ودينا وعقيدة من الأيديولوجية الخاصة ، كى تحول دون النقد ، وكى تضفى بدلا من النقد على الزعماء والأيديولوجية ذاتها ، هالة من قداسة الخوف والارهاب ، أكثر من قداسة المحبة والاحترام .

... واذن : هى أجهزة فى هذا النظام تنقل فكراً صلاحيته محدودة ، ومذهباً فلسفياً ليس له اعتباره العام . ولذا لا تستطيع أن تكون وسائل اعلام لتوجيه انسانى ، يرعى خصائص البشرية فى أى مجتمع ... وبالتالى يهيىء الجو السليم لتوازن العقل والغرائز فى الانسان ، وتوجيه العقل نحو حكم يسعد الانسان ، ولا يعرضه للمخاطر أو الى الاضطراب والقلق .

... ومع ذلك : اذا كانت أجهزة الاعلام فى النظام الديمقراطى الرأسمالى تلائم نفسها مع مقتضيات الغرائز ، تحقيقاً لربح أوفر ... وبذلك قد تنسى تقاليد المجتمع ، ومعاييره الأخلاقية فى السلوك أو تتجاهلها ... فانها فى النظام الشيوعى تحمل على أهم العناصر التى تكون عادة تقاليد المجتمع ومعاييره الأخلاقية ، وهو الدين ، تطبيقاً للماركسية .... تحمل عليه . ولا تفتأ فى السخرية به . والماركسية هى الفلسفة المادية التى تنادى بابعاد الدين وتحكم عليه بأنه مادة للتخدير والخداع ، كما تحكم بابعاد الميتافيزيقيا وخرافتها، من المجتمع ... على أن يستعين بالعلم وقوانينه ، بدلا من الدين والميتافيزيقيا معاً .

... ووضع الانسان اليوم فى المجتمعات المعاصرة يجعله ملزماً باتباع احدى الأيديولوجيتين ويناصر احدى الكتلتين . ووسائل الاعلام المختلفة

obeikandi.com

خاضـــعة كذلك لأحـــد الاتجاهين . ومن ثم لا تنقل الا ماله طابع حزبى فى التفكير والتوجيه .

وهذا بدوره يبعد هذه الوسائل عن أن تكون مصدر توجيه لحكم سليم ، ولارادة قوية ... نحو سلوك انسانى مستقيم .

... التربية والتعليم :

ســـواء فى ظل القوميات ، أو فى ظل الاتجاه العالمى ، فمحور التوجيه فى التربية والتعليم هو .. التاريخ ، وبقية العلوم الانســانية من الفلسفة ، والاجتمـــاع وعلم النفس ، وعلم الأجناس ... وليست العـــلوم الرياضية أو التجريبية فصلاحية هذه العلوم فى مجال التطبيق الصناعى أو الانســانى الطبيعى .. دون مجال السلوك والارادة .

أما العلوم الانسانية فقابليتها للاحتمال والتأويل والشرح ، تجعل هناك مجالا للاختلاف فى اتجاهاتها ، وفى تعدد صور النتائج التى تترتب على عرضها .

... وقبل ظهور الصراع الأيديولوجى ، على نحو ما ظهر عليـــه بعد الحرب العالمية الثانية فى مجال المجتمع البشرى ... كانت سيطرة الاستعمار الغربى ... وكانت الدول القوية ، والشعوب الأخرى الضعيفة . وكان جانب القوة هـــو الجانب الذى يرجح بعض الاحتمالات والتأويلات والتخريجات ، على بعض ... عند عرض التاريخ وأحداثه ، وفى بحث العلوم الانســـانية واستخلاص نتائج هذا البحث .

... فكان تاريخ الشعوب الضعيفة ، وكان تراثها فى جوانب الفكر ، واللغة يفسر ، على : أن يعطى تفسيره صورة للتخلف البشرى فيه ... كى يفسح مكانا للحاجة الى قيادة متقدمة فى خطوات الانســـانية ! وفى مقـــابل هذا التفسير يفسر تاريخ الدول المستعمرة وانتاجها فى الفكر ، واللغة ، بما يجعلها ذات أهلية للتقدم لقيـــادة المجتمعات والشـــعوب من أجل اســـعاد البشرية نفسها .

... ورواسب هذا العهد ، ما زالت باقية فى سياسة الدول الكبرى ، وكذا فى نظرتها الى الشعوب حديثة العهد فى الاستقلال السياسى . ولأن الدول الاستعمارية كانت هى دول أوربا ، جعلت من لون بشرتها البيضـاء علامة على التقدم وأهلية القيادة ، تبعاً لنتائج البحث الذى وقع تحت تأثير الاستعمار فى العلوم الانســـانية . وفى مقابل ذلك جعلت الألوان الأخرى ، ما عدا اللون الأبيض ، رمزاً اما : للتخلف ، أو للتقدم المحدود ، الذى لا يعطى الصلاحية الكاملة للقيادة البشرية ! !.

وما زالت مجموعات كبيرة من البشر تعانى بسبب لون بشرتها ، ألوانا عديدة من الاضطهاد ، وكثيراً من صنوف العنت ، حتى فى ديارهم التى توطنوها منذ أجيال عديدة .

... ولم تستطع هيئة الأمم المتحدة حتى الآن ، رغم اعلانها حقوق الانسان ، أن تحقق المساواة فى الاعتبار البشرى بين شعوب أعضائها ، أو تحتفظ بهذا الاعتبار لممثلى هذه الشعوب فيها طوال اقامتهم فى مقر دارها ... فى نيويورك ..

وبحوث المستشرقين تصور فى وضوح .. حزبية التفسير للعلوم الانسانية والغرض الاستعمارى فى بحث تراث الشعوب التى غلبت على أمرها ، وخضعت للاستعمار فترة من فتراته(١) .

وهذه البحوث نماذج ترى : كيف أن عضلات القوة ، واغراء المادة ، سخرا العقل الانسانى للتأويل المغرض والمجحف بالانسانية ، تمكيناً لسيادة قوم على قوم ، ليس لهم فضل ولا ميزة الا فى السبق والمبادرة الى الصناعة التى جعلت لهم تفوقاً فى العدة ، والاعداد على من عداهم .

وفى الوقت الحاضر ــ بعد عهد الاستعمار ، وفى عصر الصراع الأيديولوجى بين الشرق والغرب ــ زادت الخبرة واختفى وراءها الغرض... فى تفسير العلوم الانسانية ، وبالأخص فى التاريخ منها . وركز الصراع بين الأيديولوجيتين فى واقع الأمر على هذا التفسير . كى يكون شاهداً على صحة الأيديولوجية المعينة ، ودليلا على قيمها .

... والحرب الاعلامية التى بينهما ، هى حرب تفسير وتأويل ... للتاريخ البشرى ... وللفلسفة .. والاجتماع ... والأدب ، وكل ما يدخل فى نطاق تلك العلوم .

وكتابة المفكرين ، وعلماء التاريخ ، والاجتماع اليوم ، تقوم فى الأكثر على جذب الأحداث الماضية ، وعلى وضع المجتمعات التى تقدمت ، ومذاهب المدارس الفلسفية السابقة ، بعد اعدادها ، لتلائم النتائج التى يراد لها أن تكون حتميات مسلمة للتطبيق الأيديولوجى القائم ــ سواء فى الشرق أو فى الغرب ... سواء فى كتلة النظام الماركسى اللينينى ، أم فى كتلة النظام الديمقراطى الرأسمالى .

واذن : العلوم الانسانية التى هى محور التوجيه فى التربية والتعليم ،

---

(١) يراجع كتابنا «الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى».

مشدودة فى بحثها وفى استخلاص النتائج منهـا ، الى طرف أو الى اتجاه فلسفى ، ايديولوجى خاص ، دون اتجاه آخر .

ويزيد فى هـذا الشد والجذب ، صراع القوميات مع الاتجاه العالمى . وربما هذا الصراع أيضاً أثر من آثار الاستعمار الغربى . فالشعوب التى سعت ، وتسعى الى التحرر من سيادة الاستعمار ونفوذه ... ترجع فى حركاتها التحررية الى التاريخ القومى ، والتراث الذى خلقه الشعب الذى غلب على أمره فى : الفكر ، والأدب ، والفن ، والدين ، والأخلاق ، وغير ذلك من العلوم الانسانية ، لتستخدمه قوة للتكتل ، وتماسك الوحدة فى الشعب تجاه المستعمر .

... وهى اذ ترجع اليها لتأخذ منها العون ، تحملها فى التفسير والتخريج على ما يجعلها مصدر فخر ، ومجد للانسانية ، كى تدفع الجيل القائم الى الاستمرار فى رسالة الماضى والى التضحية فى سبيلها ... أو على الأقل اذ ترجع الى ذلك : تذهب عنه التفسير الخاطىء ، الذى عمد اليه المستعمر لتبرير وصيته وقوامته ، فى البقاء فى مركز القيادة والتوجيه . فيعود الأمر عندئذ الى طريقه الطبيعى .

وعلى أية حال : تراث أى شعب فى التفكير ، والعلوم الانسانية ــ وكذا تاريخه ــ يميل الى الطابع الخاص بهذا الشعب . فاذا حرك وبعث من جديد فلا يفقد هذا الطابع . وبذلك يبقى فى صلاحيته للتوجيه محدوداً بحدود هـذا الشعب وخصائصه .

... أما الاتجاه العالمى فى التربية والتعليم فواقع الأمر أنه ليس اتجاها انسانياً ، بقدر ما يحمل خصائص التراث الفكرى والانسانى لدولة من الدول الكبرى ، أو خصائص مجموعة من الشعوب التى تفرعت عن أصل واحد ، أو تكون سياسياً وثقافياً جبهة واحدة .

فمنظمة اليونسكو ــ احدى منظمات هيئة الأمم المتحدة ــ خلقت فى هذه الهيئة الدولية لتباشر وظيفة التقريب بين الشعوب ، عن طريق التربية والتعليم . وهى بحكم تكوينها ، يغلب عليها الطابع الغربى ، أو طابع الثقافة الغربية ، وهى ثقافة الشعوب التى تؤازر الديمقراطية الرأسمالية ، فى مواجهة التحدى الشيوعى .

... ولذلك كثيراً ما يبرز فى توجيهها الطابع السياسى لهذه الجبهة .. فيما تخططه فى المحيط العربى من منشآت ... أو فيما تبعثه من التراث العربى من كتب .. أو فيما تعيد كتابته من تاريخ الأمة العربية . فهى وراء كل ذلك

تستهدف خلق جو لبقاء اسرائيل وقبولها ، كاحدى دول الشرق الأدنى ، تعيش فى سلام ووئام مع جيرانها ! !

فهذا الاتجاه العالمى لا يستطع أن يقرب ، عن طريق ثقافة مشتركة ، بين الأيديولوجية الشيوعية والأيديولوجية الديمقراطية الرأسمالية ، ويحقق بذلك الوحدة العالمية . ثم هو بما يقدمه ... يقدم لثقافة معينة ، ويتغاضى عن الاتجاهات القومية فى التراث الفكرى والانسانى ، وبذلك تصبح صلاحيته أيضاً صلاحية محدودة .

... واذن توجيه التربية والتعليم ، ان صلح لمجتمع أو لبعض المجتمعات ، فهو لا يصلح لكل المجتمعات البشرية . واذا أنشىء مجتمع على أساس توجيه مجتمع آخر ، أصبح غريباً فى نشأته على أرضه الخاصة به ... وغريباً فى تفكيره .. وفى سيره فى تاريخ مجتمعه الأصيل .

... واذن أيضا : توجيه التربية والتعليم بخصائصه التى له لا يجتاز الفجوات الفكرية ، والعقيدية والمذهبية ، بين الشعوب .. بل على العكس : يبقى عليها ، ويساندها فى تطورها .

ومن هنا لا يستطيع هذا التوجيه أن يهيىء الجو الذى يعين العقل البشرى على الحكم الصحيح ، وعلى الارادة الانسانية ، وعلى السلوك الانسانى ، الذى ينفع ولا يضر ، ويطمئن ولا يقلق ، ويؤاخى ويلائم فى العلاقات بين الشعوب .

... توجيه الأدب والفن :

واذا انتقلنا الى طبيعة الأدب ، والفن ، لنقف على قيمتهما فى التوجيه ، وجدنا أن كلا منهما تعبير خاص عن فكر ، وعن فلسفة معينة .

فحسن الخيال ، وحسن الصياغة الذى يلازم طابع الأدب ، وجمال الذوق فى الاخراج الذى يلازم طابع الفن ، يحمل وراءه فكرة معينة أو اتجاها فلسفياً خاصاً ... يحمل وراءه نظرة معينة الى الحياة أو احساسا خاصا وتقييما خاصا لها .. وليست الفلسفة سوى تقييم للوجود ، وللانسان ، ووظيفته فيه .

فتوجيه الأدب ، والفن ، فى التربية والتعليم ، يعود الى توجيه الفلسفة والفكر . وما لازم الفلسفة : من طابع الاختلاف فى الاتجاه .. يلازم بالتالى الآن الأدب والفن .

هنـاك أدب قومى ، وفن قومى ، وهناك أدب عالمى وفن عالمى ... هنـاك أدب وفن ماركسى وآخر ديمقراطى ... وهنـاك أدب وفن وجودى

وأدب آخر الهى أو مثالى ..... وهنــاك أدب وفن مادى ... وأدب وفن آخر صوفى ..... وهكذا ....

والأدب العالمى ، أو الفن العالمى ، قد يعبر فيما يعبر عن القيم الانسانية العامة كالحرية الانسانية ، والعدل ، وغيرها ، ولكن لا يخرج عن النطـــاق الفلسفى ، والجو الفكرى الذى يعيش فيه الأديب أو الفنان فى تفسير هذه القيم ، والميل بها الى الأيديولوجية الخاصة بمجتمعه .

فالأديب العالمى ، أو الفنان العالمى ، ان وجد فى المجتمع الشيوعى ، يكون تعبيره عن القيم الانسانية العامة بالتفسير الماركسى لها . وعلى هذا النحو فى المجتمع المقابل للمجتمع الشـــيوعى ، وهـــو المجتمع الديمقـــراطى الرأسمالى .

... الأدب العالمى ، أو الفن العالمى ، ان مجد القيم العليـــا للبشرية يمجدها بتلك الروح التى يحملها ، وهى روح الانسان صاحب البيئة الخاصة والتنشئة الخاصة . فان تأثر بعوامل أو بجو مجتمع آخر ، فلا يزيد ذلك فى « تجرده » وارتفاعه عن التأثر بالبيئة ، وانما بالأحرى ينقل من جو الى جو ، أو من بيئة الى بيئة أخرى .

.... هنـــاك لون من الأدب العالمى ، والفن العالمى ، يعبر عن الطبيعة وما فيهـــا من مفارقات تنتهى الى وفاق ، ومن متفاوتات فى ظاهرها تصـــير بادراكها الى انسجام بينها ، أو يعبر عن قصص تاريخية عامة كنشأة الانسان مثلا ، أو يحكى بعض الحوادث التى ارتبطت بأكثر من شعب ..... هذا اللون من الأدب ، والفن ، يدخل فى باب الثقافة العامة ، أكثر منه فى باب التوجيه . وعلى كل حال : هو تصـــوير لأحاسيس وانفعالات بأمور عامة ، لا تتصل بالهدف الذى سنتناه للتوجيه ، وهو :

خلق جو للحكم العقلى الصحيح ، وتكوين الارادة القوية فى الانسان ، والسلوك السوى له .

واذا قيل : ان صلة الأدب والفن بالوجدان أكثر من صلتهما بالفـــكر والفلسفة ، وهما بهذا الاعتبار لهما صلاحية عامة بالنسبة للانسانية ... فلا يؤثر ذلك . لأن الوجدان لا يخطط به الانســـان فى حياته ، ولا يتجه به الى اليمين أو الى اليسار فيما يرى ، أو فيما يسلك أو يتصرف ، وهو فيما يحس أو ينفعل لا يوصل الى اختلاف جوهرى بين الناس أو الشعوب .

ومع ذلك : هذا القول فى ذاته يحتاج الى تأصيل . صحيح : ان الأدب ، والفن ، لهما صـــلة وثيقـــة بالوجدان .. فى اثارته ..... ولكنهما مع ذلك يحملان فكراً واتجاهاً معيناً .

obeikandi.com

والوجدان مع ذلك كالتفكير ، يخضع للتأثير بالعرف والتقاليد وجو البيئة التى يعيش فيها الانســـان المنفعل بوجدانه ، عن طريق الأدب ، والفن . وما يقبل عليه وجدان انسان ، ويحس باحساس الرضا والقبول له ، قـــد ينفر منه وجدان انسان آخر ويحس باحساس الكراهية ضده .

واذا قلنا : ان الانســـان يتأثر بعوامل بيئته ، فمعناه : هو كوحدة فى تفكيره ، ووجدانه وارادته يتأثر بذلك ، وان كان مدى التأثر قد يختلف بالنسبة لكل من مكونات وحدة الانسان ، التى هى : التفكير ، والوجدان ، والارادة .

والأدب ، والفن ، ان اشترك وجدان الانسان مع تفكيره فى انتاجهما ، فهما أدعى للتأثر بما يتأثر به الانسان فى تفكيره وحده .. وبذلك يكونان عرضة لنفس الحـــكم الذى حكم به على توجيه الفلســـفة ، وهو عدم الصلاحية فى توجيه المجتمع البشرى كله .

... توجيه السياسة :

واذا كان توجيه الفلسفة والفكر ، وتوجيه التربية والتعليم ، وتوجيه الأدب والفن ، وتوجيه الصحافة والاعلام ، لا يجمع عناصر الصلاحية العامة للتوجيه الانسانى العام ، فتوجيه السياسة بالأولى ... بعيـــد عن هـــذه الصلاحية .

لأن السياسة ليست رسماً لتفكير ، بقدر ما هى تنفيذ لهـــذا التفكير .. ان السياسة فى أصلها هى اشراف على تنفيذ فلسفة معينة .. وقد تكون احترافاً بالحكم لذاته ، ولجاهه ، وسلطته .

وهى فى تنفيذها لفلسفة معينة — ان آمنت بها — قد تجمد بعض مبادىء هذه الفلسفة فترة من الزمن ، أو تسلك بعض السبل التى تبدو فى ظاهرها أنها مناقضة للروح العامة التى قامت عليها هذه الفلسفة . وذلك لضرورات تدفع الى ذلك . وهى فيما تجمد من مبادىء ، أو تغير من أسلوب فى التنفيذ ... تلائم بين الفلســـفة وبين ظروف المجتمع الداخلية ، أو بينها وبين العلاقات الدولية فى اتصال المجتمع بها .

وهذه الملاءمة تنطوى على تحديد وتضييق ، أكثر للفلســـفة ... وعلى ربطها فى الصلاحية بظروف معينـــة . وهذه ظاهرة تفقـــد الســـياسة طابع الصلاحية العامة للتوجيه .

... وقد تكون هناك بواعث أخرى ، غير الظروف المعينة ، تحمل على تأجيل بعض المبادىء ، أو تغيير أسلوب تنفيذها .. قـــد تكون هنـــا بواعث

التأثر بجاه الحكم ، وسلطته ، والرغبة فى الاستمتاع بهما أطول فترة ممكنة ، وان لم يذكر ذلك صراحة . وهنا يدخل الاحتراف بالسياسة .

ومع الاحتراف بأية قيمة من القيم يكون النفاق دائما .. نفاق الجماهير ونفاق المبادىء . اذ شأن الايمان بالقيم وعدم النفاق فيها يدعو الى اعتزال السياسة والعودة الى الدعوة الى المبادىء ، اذا لاقى تنفيذها عن طريق الحكم صعوبة فى التقبل لدى المجتمع ، أو لاقى أغراضا وأهواء فى طريقه .. ليس من اليسير تجاهلها ولو لفترة ما .

واذا أصبحت السياسة حرفة ، والنفاق وسيلة للبقاء فى الحكم ، فان السياسة لا تفقد صلاحيتها فى التوجيه فحسب ، وانما تصبح خطرا على الانسان وعلى حياته ، قبل ما تصيب توجيهه بأضرار المحدودية فى الصلاحية .

ان الأحزاب السياسية فى النظام الديمقراطى الرأسمالى تحترف فى صراحة بسياسة الحكم . واختلاف هذه الأحزاب قائم على اختلاف كلى فى فلسفة السياسة الداخلية أو الخارجية ، للوصول الى الحكم والمنافسة فى سبيله .

ونفاق الجماهير وخداعها بالوعود والآمال المرتقبة ، التى قد تمر أجيال ولا تتحقق ، فى نظام الأيديولوجية الشيوعية ... يجعل الاحتراف بسياسة الحكم والرغبة فى الاحتفاظ بجاهه وسلطته غير ملموس وغير واضح . وربما لو كان هناك فى هذا النظام : **نقد حر للسياسة ، وتعبير حر عن الرأى فيها ، وضمان للحرية الشخصية وكيان الفرد من الانتهاك أو التجويع والتشريد .. لانكشف الاحتراف بسياسة الحكم هناك مهما علاه من صنوف النفاق والوانه.**

ان الأحزاب السياسية فى نظام الحكم الديمقراطى الرأسمالى تختار رجال الحكم والمنفذين لسياسته من أعضاء الحزب الذى يأتى دوره للحكم . بغض النظر عن كفايتهم الفنية ، أو الخلقية ، أو الايمانية بمبادىء الحزب نفسها ، طالما يتمتعون بنفوذ فى الحزب عن طريق المال ، أو العصبية ، أو عن طريق أى نوع من أنواع العلاقات الخاصة برئيس الحزب .

وهى ظاهرة لها اعتبارها كذلك فى نظام الحكم الآخر المقابل له وهو الحكم الماركسى ، وان لم تكن نفس الأسباب والدوافع .

وربما اذا رجع الأمر فى الاختيار فى النظام الديمقراطى الى ترشيح الحزب فى أكثر الأحيان ... فانه يرجع هنا فى النظام الماركسى فى الأغلب الى الشخص القوى فى النظام .. وقد يكون رئيس الحكومة قبل رئيس الدولة.. وقد يكون أحد أعضاء الحزب « الواحد » قبل الرئيسين معا .

ولا شك أن مثل هذا الاختيار لا يجعل سياسة الحكم حرفة وتجارة فقط .. وبالتالى يفقدها الصلاحية العامة للتوجيه ، باعتبار أن لها صلة معينة بفلسفة الحكم نفسها ، وهى صورة من صور التفكير الانسانى ... بل يجعل هذه السياسة ذات أثر سلبى على كل مصادر التوجيه السابقة ، ويضيف الى السبب أو الأسباب التى أفقدتها الصلاحية العامة ، سببا آخر هو : الغرض والرغبة الخاصة .... هو الهوى والشهوة .... هو العواطف والميول . وهى كافية فى الحيلولة دون أن يكون لما يأتى تبعا لها اعتبار انسانى أصلا .... فضلا عن أن يكون اعتبارا عاما .

.. قضية الانسان :

ان الأمر فيما ذكر كله هنا عن مصادر التوجيه يعود فى نهاية المطاف الى الانسان ، والى مدى تأثره أو عدم تأثره ، بما نما وعاش فيه .... وبما يوجد فيه من جو يحيط به .

... ان الأمر يعود الى الانسان ، والى مدى استقلاله بالتوجيه الانسانى للانسانية .... انه يعود الى تلك القضية .... قضية الانسان فى اكتفائه الذاتى ، أو عدم اكتفائه الذاتى فى تحقيق رسالته فى الاخوة الانسانية، والمساواة فى الاعتبار البشرى فيها ، والتعاون لخير البشرية .... انه اتجاه « العلمانية » ..

... ان الأمر يعود الى ذلك التساؤل :

● ان الانسان كان بدائيا فتحضر .

لماذا لم يكن متحضرا من أول الأمر ؟

وما هى عوامل حضارته وصلتها بانسانيته ؟ .

● ... انه فى حضارته لم يزل يتحزب ، ولم يزل يهوى ويغرض .

هل ذلك استجابة لانسانيته فى مستواها الرفيع ، أم ذلك أمارة على الوقوع تحت تأثير الأنانية والغرائز ؟

والى أى مدى تسهم الأنانية فى الانتاج الحضارى ؟ .

● ... ان الانسان فى عصر العلم والتفوق فيه ، لم يزل يخشى ، ويضطرب ويقلق .

هل ذلك أمارة على تقدمه فى انسانيته ؟

وهل هو وسيلة لاسعاده ، أم ان اسعاده فى تجنيبه الخوف ، والاضطراب والقلق ، بخلق جو للأمان والاستقرار ، يعيش فيه بفكره ، ووجدانه ، وسلوكه ؟

● ... أهذه الظواهر تدل على استطاعة الانسان وحده أن يؤدى وظيفته فى الحياة ؟

أم تدل على غلوه فى الثقة بنفسه ، مع احتياجه فى الواقع الى سند يؤازره ؟

وما هو ذلك السند ... ان كان ؟

وكيف يسانده مع الاحتفاظ بكرامته وخالقيته ؟ .

... « أوجست كونت » الفيلسوف الفرنسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يرى :

أنه ببداية عصر العلم والصناعة ، وبتوجيه علم الاجتماع ، ومساندة « دين الانسانية » ... يأمن الانسان جانب الخطر فى التوجيه ، ويصل الى مستوى انسانى رفيع ، يحول دون العودة الى البداءة ، كما يمنع سيطرة الأنانية والهوى والغرض ، ويجنبه جو القلق والاضطراب !.

ويستعرض تاريخ الانسانية قبل عهد العلم والصناعة ، ويستخلص منه :

أن عهدين قبل هذا العهد ، مرا بالانسانية ولم يزل الانسان فى طور الغاب ، والحيوانية والغريزة العمياء والأنانية ... رغم وجود الدين كمصدر للتوجيه فى عهد ... ووجود الفلسفة بعده فى عهد آخر .. ورغم اسناد التوجيه فى العهد الأول الى رجل الدين ورجل الحرب ، وفى العهد الثانى الى رجل الفلسفة ورجل القانون .

... ولكن عصر العلم والصناعة بعدهما ، واسناد التوجيه فيه ، الى رجل العلم ورجل الصناعة ... كفيل فى نظره بنقل الانسان من هذا المستوى الغرزى الحيوانى الى المستوى الانسانى بمعناه الصحيح . وعلى علم الاجتماع كما يعتقد هو ، كظاهرة لعصر العلم .. تقع عملية نقل الانسان من :

مرحلة الغاب الى مرحلة الصناعة ،

ومن الحيوانية الى الانسانية ،

ومن الغريزة العمياء الى العقل ،

obeikandi.com

ومن الأنانية الى الاحساس الجماعى !! .

... على أن يعين هذا العلم فى مهمته هذه : « دين الانســـانية » . وهو دين يتمحص للايمان بالانسانية كهدف ... ويتخذ لذلك :

من حب الانسانية أساسا ،

ومن النظام قاعدة ،

ومن التقدم غاية .

... وبالترابط بين هــذا الدين ، وعلم الاجتماع ، يتــكون التــوجيه الصحيح فى نظره ! . اذ التوجيه الصـــالح ، فى نظر : « كونت » ... هو ما انطوى على أمرين :

أولا : على النظرة العلمية ...

وثانيا : على تحريك الوجدان .

واذا كان علم الاجتماع ينطوى على النظرة العلمية ، فدين الانســـانية يتكفل بتحريك الوجدان ويدفعه نحو تحقيق المطلوب .

و « كونت » برأيه هذا يوضح الحقائق الآتية :

● ان الانسان لكى يصير الى انسانيته فى تطوره ، بحاجة الى توجيه يقوم بالنقل والحركة من وضع الى وضع ... من وضع أدنى الى وضــع أرفع .

● وان انسانية الانسان تتمثل فى عقله ، ووجدانه ، وارادته .

● وان هذا التوجيه لابد أن يكون متلائما ، مع انسانية الانسان ... متلائما مع : عقله ، ووجدانه ، وارادته .

وما يتلاءم مع العقل هو العلم ... وليس الظن ... وليست الخرافة .

وما يتلاءم مع الوجدان والارادة هو : الايمان والاعتقاد ... هو الدين ، دين الانسانية فى نظره ... وليست الفلسفة ، ولا القــانون ، ولا السياسة ولا الأدب ، ولا الفن .

... واذن « كونت » لا يقر بقاء الانسان فى دائرة الأنانية ، وبالتالى لا يقر بقاءه فى نطاق الغريزة العمياء والحيوانية ... لا يقر بقاءه فى بدائيته فى أسلوب حياته . وانما يريد له : أن يمـــارس عقله ، ووجدانه ممارســـة

انسانية سليمة ، وأن يعيش بأسلوب التقدم الصناعى فى حياته ... وليس بأسلوب الغاب .

... العلم . والايمان بالانسانية ، هما الدعامتان فى تقدم الانسان وتطوره ... وهما فى الوقت نفسه غاية الانسان . فوجود العلم فى حياة الانسان أمارة على مباشرة العقل الانسانى لوظيفته مباشرة سليمة . ووجود الايمان بالانسانية فى حياة الانسان أيضا دليل على وجود الاحساس الجماعى ... وبالتالى دليل على ضعف الأنانية فى الانسان .

وكلما تقدم العلم ، وقوى الايمان بالانسانية ... كلما تقدم الانسان ، وابتعد عن الحيوانية ، ، وعن سيطرة الغريزة العمياء وتحكم الأنانية .

واذن هما معادلتان فى حياة الانسان :

أولاهما : **تقدم** ، وهو يساوى : العلم والايمان بالانسانية ، والاحساس الجماعى .

وثانيهما : **تخلف** ، وهو يساوى : السيطرة للغريزة أو الحيوانية والأنانية ، أو الاحساس الفردى .

والتقدم مصدر السلام ، والتخلف مبعث الاعتداء ... التقدم مصدر الأمان والاستقرار ، والتخلف مصدر الخوف ، والقلق والاضطراب :

مضى على وفاة « كونت » الآن ما يزيد قليلا عن قرن من الزمن ، ولقيت فلسفته الوضعية هذه قبولا عليها ، وتأثر بها ماركس فى شيوعيته ، وتأثر بها غيره من فلاسفة الغرب فيما يسمى بالفلسفة الواقعية . واعتبرت فلسفته نقطة تحول عظيم فى تاريخ الفكر الانسانى ، وفى تاريخ المجتمع البشرى ... كما اعتبر منهجها منهجا علميا ، خلا من التأثر بالرواسب الماضية ! .

و « كونت » لم يعش بتفكيره فى عزلة عن المجتمع الانسانى ، بل تفاعل معه . وربما كان تأثير تفكيره فى هذا التفاعل أكثر من تأثره به :

ان فلسفة « كونت » الوضعية غيرت فى حركات الشعوب والمجتمعات واتجاهاتها ، وغيرت فى مناهج بحث العلوم الانسانية ، وكونت تلاميذ كان لهم أثر واضح فى تغيير مجرى الفكر الانسانى فى مجتمعات عديدة ... وراء المجتمع الفرنسى .

ومع ذلك ... مع وجود علم الاجتماع ، ودين الانسانية اللذين نادى بهما ، ومع تزايد عصر العلم والصناعة فى الازدهار بما لم يترقبه ... هل

تقدم الانسان ؟ فأصبح يستخدم عقله استخداما صحيحا ، وأصبح يحس فى نفسه باحساس انسانى جماعى ؟

هل الماركسية اللينينية — وهى نظام جماعى — تنم فى تطبيقها اليوم عن الاحساس الجماعى الانسانى الذى يتملك الأفراد ؟

هل عصر الصناعة حال دون استخدام : القرصنة وشريعة الغاب ؟

هل حال عصر الصناعة دون دفع الغريزة العمياء فى السلوك والعلاقات بين الأفراد ؟ .

هل انتهى بعصرها عصر الحيوانية والأنانية ؟

ان الانسان الأبيض — وهو انسان المجتمع الغربى ... مجتمع « كونت » .. لا يزال يباشر التفرقة العنصرية فى سياسته نحو الزنوج ، أو نحو الافريقيين ، والآسيويين .

... هل مباشرة التفرقة العنصرية فى السياسة ، والسلوك ، أمارة على الأنانية التى هى مصدر التخلف ، أم دليل على الاحساس الانسانى الجماعى ، الذى هو مظهر التقدم ؟

... ان الانسان الأبيض — وهو انسان المجتمع الغربى ... مجتمع « كونت » ... لا يزال يستخدم عقله فى تبرير سياسته العنصرية !

... هل تبرير السياسة العنصرية أمارة على العلم ... وبالتالى على تقدم الانسان .. أم دليل واضح على الاعتقاد بالخرافة وبالتالى على التخلف ؟

أين اثر دين الانسانية والايمان به ؟

أفى طرح الصلات والأواصر فى العلاقات ، واخضاع الانسان فى تقييمه للجانب المادى وحده ؟

... أفى انحلال الأسرة ، وتقويض العلاقات بين أفرادها تحت تأثير ما يسمى بالحضارة الصناعية ؟

... هل زاد عصر الصناعة فى قوة الايمان بالانسانية ، وهو عصر العلم ودين الانسانية فى نظر « كونت » ؟

... هل توحى الحضارة الصناعية بالآلية أم بالانسانية ؟

... وهل دين الانسانية يقوى على تحدى مشاكل الصناعة ، والابقاء على سيادة الانسان .. كما هو منطقه ؟

هل الصناعة الالكترونية أبقت على اختيار الانسان وارادته ــ واختيار الانسان دليل على تخلصه من سيطرة الغرائز فى التفكير واستخدام العقل استخداما سليما ــ أم جعلته مجبرا ، وسلبت منه ارادته ، وأصبح لا يستطيع التخلف عن التبعية ، فضلا عن أن يرتفع الى مستوى النقد وابداء الرأى ؟

ان الراديو ، والتلفزيون ، سيطرا على سمع الانسان ، وبصره واحساسه ، ولم يتركا له من حواسه الخمس سوى : حاستى الشم واللمس، وهما اقل الحواس فى تكوين المعرفة وارشاد الانسان .

ان العلم سيساعد على سلامة التفكير ، وان الايمان بالانسانية سيعين على تكوين الاحساس الجماعى ، وفى الوقت نفسه أيضا سيعين على سلامة التفكير كذلك .. هذا منطق ، وحق .

... ولكن لماذا لم تتقدم المجتمعات البشرية فى مستوى الانسانية ؟ والأمل الذى كان معقودا على الاتجاهات الانسانية الجماعية فى نظام الحكم فى الوصول الى ذلك المستوى الانسانى ، خيبه التطبيق الشيوعى ؟

هل تقدم العلم ؟ وتخلف الايمان بالانسانية ؟

... تقدم العلم حقيقة ملموسة ، وتخلف الايمان بالانسانية .. له ظواهر كثيرة تدل عليه .

ولا ينكر اطلاقا : اذا توفر الأمران فى توجيه الانسان ، فانه يكون ذا مستوى رفيع تقدمى فى انسانيته .

... والآن لماذا تخلف الايمان بالانسانية ، ولم ينجح « دين الانسانية » فى اثارة الوجدان بالاحساس الانسانى الجماعى فى البشرية ؟

ان الخطأ الذى وقع فيه « كونت » ــ ووقعت فيه الأيديولوجية الماركسية بعده ، ووقعت فيه العلمانية بصفة عامة ... هو : الظن بأن الانسان يستطيع أن يخلق « دينا » وأن يجعل فى قلبه ايمانا ، له طابع العقيدة .

وربما الأمر الذى دفع « كونت » ــ كما دفع غيره من فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ــ الى هذا الخطأ هو موقف الكنيسة من المسيحية . فالكنيسة تحجب المسيحية فى أصولها السليمة ، وتقدم منها لأتباعها ما تراه منها . وما تراه منها .. هو ما يجعل للكنيسة سلطة وبقاء كقوة فى سياسة المجتمعات ، تسمع وتطاع دون تردد ، ولها الاحترام والقداسة فى غير شك . ولذلك جسدت الله فى شخصها وسلطتها .

... وبذلك لم ير الناس الله فى الانسانية ، ولم يروا تعاليمه فى الدفع الى مستوى الانسانية الفاضل ، وهو المستوى الذى يقوم على الاحساس الانسانى الجماعى ، والحد من الأنانية وسيطرة الغرائز فى السلوك والعلاقات .

ان « كونت » لا يدعى لنفسه ، ولا يدعى له بعض تلاميذه ومريديه ، أنه درس المسيحية كرسالة لله ، فى غير ما كتبته الكنيسة وأقرته ... وفى غير ما توصى به وتعلنه .

ومن ثم اذا عارض «كونت» الايمان بالله وحوله الى الايمان بالانسانية، فذلك لأنه يريد انسانية فى مجتمع انسانى ، ولا يريد سلطة لطائفة تريد أن تحتكر التوجيه فى المجتمع الانسانى ، دون أن يكون لهذا التوجيه أثر سوى الطاعة والقداسة لأشخاص تلك الطائفة ، مع بقاء الأنانية فى احساس الوجدان ، والخرافة فى تفكير العقل .

... ان الانسان لا يستطيع اليوم أن يخلق دينا ، كما تصور «كونت» ... ان الانسان لا يستطيع ، لا بسبب تقدم العلم فى منهج بحثه ، ولكن بسبب تقدمه فى تقريب المسافات ، وربط الشعوب والمجتمعات البشرية ، عن طريق أجهزة الثقافة والاعلام ... أن ينشىء عقيدة حديثة ، كما نشأت فى الماضى عقائد .

... ان نشأة العقائد الكثيرة ــ عدا رسالة السماء ــ خضعت فى الماضى الى عامل الصدفة ، ثم الى العزلة والانقطاع فى الصلات بين المجتمعات .

فعامل الصدفة لعب دورا كبيرا فى العقائد الوثنية ، والايمان بانطواء بعض الكائنات المحسوسة على قوى تحرك وتصير الانسان ، وترتبط بحركتها الأرزاق وبتصييرها السعادة والشقاوة له ! .

وساعد الصدفة على أن تحول وتوسع حادث أو أمر من الأمور بمكان بعيد ، أو عند كائن محس خاص ، الى عقيدة فى النفع والضر ... بعد المسافات بين المجتمعات وطول الأمد على العزلة وعدم الاتصال .

والعلم فى تقدمه اليوم كشف عن الأرض وما فيها ، وما فوقها . وهو كل يوم يزيد فى هذا الكشف عنها . وهنا لا يكون للصدفة أثرها فى الاعتقاد ، على نحو ما كان لها فى الماضى .

يضاف الى ذلك : ما أحرزه العلم من قوة فى تقدمه فى طى الأبعاد والمسافات الشاسعة وتقصيرها ، بحيث أصبح من الضرورى فى ثقافة

الانسان المعاصر أن يجيد أكثر من لغة ، كى يستطيع بنفسه حتى فى أقصر رحلاته ، أن يسد حاجة التفاهم بينه وبين الآخرين فى مجتمعات أخرى ..

ومهما كان الوضوح أو الاتجاه الفكرى الذى يراد له أن يكون دينا وعقيدة ، من الأهمية للبشرية ومن الصلاحية والاستقامة فى خطوطه العامة.. فانه من الصعب فى عصرنا الحاضر أن يتحول الى دين وعقيدة . لأن أخص عنصر فى تكوين معنى الدين . أن لا ينسب الى شخص هو انسان مساو لبقية الناس فى الاعتبار الانسانى ، ومساو لهم فى الاتيان بالخطأ والصواب.

... فـ « المساواة » عامل يحول دون التبعية والطاعة ، التى تطلب للدين ، كما يحول دون الاحترام والعبادة لمن صدر منه الدين .

... وربما يصل الأمر عن طريق مبدأ المساواة الى النقد لموضوع الدين ... وربما يصل الى أبعد من ذلك ... يصل الى الاستخفاف ، وعدم الاكتراث بشخص من صدر منه الدين ! .

والمعارضة عادة لا تأتى الا من مساو لمساو ، أو من نظير لنظير . ومهما كان لأحد النظيرين فى جانب ما ، من تفوق على الآخر فى العمل ، ومن طاقة تزيد على طاقته ... فانه لا يتمتع فى نفوس نظرائه باحترام ، يدانى ما يتمتع به شخص آخر أجنبى عنهم من احترامهم وتقديرهم ، ولو لم يكن له من الانسانية الا مظهر الانسان دون مخبره .. وحرمته لدى النظراء تقل عن حرمة جاهل أمى غريب عنهم .

واجهزة الاعلام فى النظام الشيوعى تحاول أن تخلق من « الماركسية » دينا . وقد مضى على ذلك قرابة نصف قرن الآن ، واستخدم هذا النظام عامل عزلة المجتمع عن بقية المجتمعات الأخرى ، ووضع ما سماه « بالستار الحديدى » . ومع ذلك لا يؤمن بها فى المجتمع الشيوعى الا خائف على نفسه، أو على قوته وأجره اليومى ، فايمانه نفاق ، وعدم مناقشته لمبادئها علنا ... تقية وخشية ..

ولم يصبح كارل ماركس معبودا ... ولم يصبح لينين معبودا ... ولم يصبح العلم الذى دعا كل منهما اليه الها ... ولم يصبح كارل ماركس معبودا ، لأنه وهم يوم أن رأى سعادة الانسان فى الملكية الجماعية ، ورأى حريته فى الغاء الملكية الفردية ، وربطه فى الأجر بعمل الدولة وحدها .

فهو انسان أخطأ التقدير : ففرض الرق على الفرد باسم الحرية . اذ كيف يكون الفرد حرا وهو لا يجد عملا الا عند الدولة ، ولا يجد قوته الا عند أصحاب القوامة على هذا النظام ؟ . انه عندئذ يخضع رأيه ، وفكره لبطنه ،

ويخضع رأيه وفكره لتحصيل وسائل حياته فى الغدو والرواح الى العمل ، وفى الوقاية من التشريد فى المسكن .

... ولم يصبح العلم الها : لأن العلم الذى بشر به كارل ماركس الانسانية أصبح نذيرا لها ، ومهددا بفنائها ... وأصبح فى تجدده وتقدمه ، عاملا من عوامل الخوف والقلق ، وعاملا أيضا فى افقار الانسانية ودفعها الى الجوع ومرارة العيش فى الحياة ... انه أصبح فى خدمة الحرب ... فى الاستعداد لها والوقاية منها ... انه حول من رخاء الحياة للمجتمعات الى شقائها والى حساب تدميرها .

التوجيه الصحيح للانسان فى نظر « كونت » فى حاجة الى العلم ، كما هو فى حاجة الى الايمان بالانسانية كدين .

ووجد العلم ، وتقدم ، ولم يوجد دين الانسانية ، ولا يقدر له أن يوجد فى عصر العلم ، بعد فشل التجربة الشيوعية فى تحويل الماركسية الى دين ، وتحويل وعودها بحياة أفضل الى جنة على الأرض .

الانسانية مفتقرة الى دين يدعو الى الايمان بها . فماذا يصنع الفكر البشرى الآن ؟ .

ان ماضى الكنيسة مع الانسانية لا يشجع على الرجوع الى الله ، ويدعو الى غض النظر عنه . لكن لماذا لا يرجع الانسان الى الله فى رسالته، وليس فيما يكتبه المحترفون به ، عنه ؟ .

... ان اتجاه العلمانية الذى فرض نفسه فى المجتمعات الأوربية ، بسبب أخطاء الكنيسة وعدوانها على الانسانية فى القرون الوسطى ... شق طريقه الى المجتمعات الاسلامية مع الاستعمار الغربى ، كى يبعد الاسلام من وطنه ومن فوق أرضه ، ومن قلوب المؤمنين به ، ويوجد مع ذلك فراغا ايمانيا فى نفوس الأجيال التى تنشأ على عهده ، ومن بعده ، طالما تنشأ على سننه وأسسه .

ان هذا الاتجاه العلمانى أخذ يتغلب فى المجتمعات الاسلامية فى التوجيه، والتشريع ، مع نظم الحكم الغربية فى السياسة والادارة والاقتصاد ، منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى . ونشأ أجيالا وروادا ، بعد أن أسس المدارس والجامعات ، وبعد أن وطن فلسفته ، وروج لمذهبه فى التوجيه .

... وساعده على التوطن فى حياة المجتمعات الاسلامية ، بعد أن تام الاستعمار الغربى الصليبى بعمليته ... الاتجاه الالحادى الماركسى الذى ظهر واضحا فيها ... منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين .

ان كلا الاتجاهين يهدفان الى هدف واحد هو : ابعاد الدين عن مجرى الحياة والتوجيه ... ابعاد الدين التقليدى ، مسيحية أو اسلاما .

وبعد نقطة الالتقاء بينهما ... يختلف كل منهما فى طريقة الابعاد :

أحدهما يستمر فى هجومه المعروف على الدين كسلطة تمارس حكما ، وتقيم مملكة ، وهو الاتجاه العلمانى .

والآخر يغرق فى دعوى : أن الدين خداع من جانب ، كما يغرق من جانب آخر فى تفخيم الأمل فيما يدعو له من عقيدة جديدة ... عقيدة الايمان بتعاليم ماركس التى تقوم على الاشتراكية العلمية !

وأصبح على أرض الاسلام والمسلمين يشاهد الصراع المرير بين : « العلمانية » والاسلام . وربما يشاهد هذا الصراع غير متكافىء فى واقع المعركة . وهو فى حقيقة وضعه : صراع أيديولوجيات . وربما يبدو الضعف فى جانب الاسلام بسبب عرضه ، كما تبدو القوة فى الجانب المقابل من عرضه كذلك ... فى تنوع وسائل العرض ومن الاجادة فيها .

... وهنا يتحتم من أجل تقييم الوضع لكل منهما تقييما صحيحا ، بعد ما وضح من قيمة توجيه الفلسفة فى اية مدرسة لها ، وفى أى اتجاه يسلكه ... أن يشار الى دور الاسلام فى ذاته ، ومن قرآنه ، ليرى :

هل فى الامكان أن يسد الاسلام الفراغ فى التوجيه الذى تفرضه طبيعة الانسان الثنائية ؟ .

... الاسلام فى ميزان التوجيه :

لماذا لا يرجع الى الاسلام فى قرآنه ؟ فان عرف أنه للانسانية ، ومن أجل المستوى الانسانى الرفيع فيها ... أخذ فى التوجيه ، على أنه دين الانسانية ، وهو بالفعل دين وعقيدة ، وله خصائص الدين والعقيدة ، ولا يحتاج الى تحول ولا الى نقلة من الانسان .

فالله المعبود فيه ليس كمثله شىء ... متفرد فى صفاته ووجوده ... فوق البشر وفوق الوجود ... كل فى كماله المطلق . وتلك مفارقات بينه وبين الانسان تحمل على العبادة لله ، والطاعة لرسالته .. « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** »(١) .

---

(١) الأنعام : ١٠٣

ان دين الانسانية قد طلبه « كونت » ليعين على نقل الانسان من مرحلة الحيوانية والغرائز العمياء والأنانية الجامحة .. الى العقل والعلم ، والاحساس الانسانى الجماعى ..

... كما طلب أن يكون قوامه : الحب ، والنظام ، والتقدم .

فهل الاسلام بتعاليمه يدفع الى تكوين الاحساس الانسانى الجماعى فى الانسان ، بدلا من الأنانية .. والى توجيه الانسان نحو العلم والتفكير السليم ، بدلا من الخرافة ؟ .

هل الاسلام يحمل على ابعاد الحيوانية ، وابعاد سيطرة الغرائز فى تصرف الانسان وسلوكه ؟ .

هل الاسلام يقوم على المحبة ، والنظام ، والتقدم ؟ ..

هل الاسلام جعل من المؤمن به انسانا ذا انسانية : فى تفكيره ، وذا احساس جماعى فى سلوكه .. وذا نظام فى حياته .. وذا محبة فى علاقاته .. وذا تقدم فى مجال انسانيته ؟ ..

ان كان الاسلام على هذا النحو فأية حاجة للانسانية بعده فى التوجيه الا اذا حجب التعصب الجديد للعلمانية والماركسية الالحادية ضد الماضى ،

... وحالت المنافسة فى العقيدة ضد رسول الاسلام ،

ووقفت النظرة الى اللغة العربية فى سبيل القبول لمبادئه ،

... وعندئذ : هل يكون ذلك طابع عصر العلم ؟ .

هل يكون الرفض فى هذه اللحظة — نتيجة للمنهج العلمى فى البحث ؟ وأمارة على التقدم فى الحياة ؟ .

المساواة فى البشرية .. فى الاسلام :

ان أول قاعدة يقرها الاسلام للانطلاق منها : تساوى الشعوب والأجناس فى الاعتبار البشرى ، مع تعددها ... ثم المفاضلة بعد ذلك بين أفرادها .. بمستوى الانسان فى الانسانية وحده . يقول القرآن الكريم :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

---

(١) الحجرات : ١٣

... فهنا أولا : الاقرار : بالتساوى فى البشرية : فطالما كان خلق الناس جميعا من ذكر وانثى من النوع البشرى ، فلا يتميز اذن واحد على آخر فى الأصل والنشأة ..

... وهنا ثانيا : الاقرار : بأن اختلاف الناس الى شعوب وأمم حسب الوانهم ، وحسب مواطنهم ، أو حسب عروقهم .. يستهدف التقارب وليس التباعد .. والتعارف وليس التنافر .. والتعاون وليس التنازع . اذ الاختلاف من بعض الوجوه ، وليس التشابه من كل وجه .. يوحى بالحاجة الى التكامل .. وما يوجد عند واحد يكمل ما هو مفقود عند الآخر . فهنا نداء الحاجة الى الاستكمال يحمل على اللقاء .. كما يحمل على البقاء فى الألفة . وتلك سنة الوجود ... لا يختلف عنها كائن فيه .

... واذا قيل : ان الانسان مدنى بطبعه ، أى أنه يميل الى المعاشرة ، واللقاء ، والمعاونة وتبادل المصلحة ... فهذا القول نتيجة لذلك المبدأ الوجودى : فكل فرد له من بعض الخصائص الفردية ما يختلف به عن فرد آخر . والا لما كان تعدد بين الأفراد . والاختلاف فى الخصائص الفردية .. سبب الحاجة الي الاجتماع وتكوين المجتمعات ..

... ولهذا السبب : قيمة هذا المبدأ الطبيعى ، ونتيجته الحتمية ايضا .. بين الشعوب والأمم كما له نفس القيمة ونفس النتيجة بين الأفراد .. والشعوب مدفوعة على اللقاء والتعارف **اذن بسبب ما بينهما من اختلاف** . فان لم تتعارف ... وتلتق .. يكون هناك عامل آخر أقوى قد تدخل فأضعف من فاعلية هذا المبدأ ... تكون هناك الأنانية وسيطرتها ..

... وتقر هذه الآية أخيرا : أن المساواة فى الاعتبار البشرى لا تستتبع المساواة فى القيمة . بل بعد هذه المساواة ، يوجد اختلاف فى القيمة ، نتيجة لمدى المستوى الانسانى فى الانسان . فأكرم الناس عند الله ، بعد مساواتهم فى الاعتبار الانسانى . أتقاهم .. وأبعدهم عن المنكرات والفواحش ، والظلم والعدوان ..

والتقوى هى جملة خصائص يكسبها الفرد فى نفسه . وهى عنوان المستوى الفاضل فى الانسانية . وهذه الخصائص :

● الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ،

● اعطاء المال فى محبة للاعطاء ورضاء نفس به : للأقارب ، واليتامى ، والمساكين وأبناء السبيل ، والسائلين ، وفى تحرير الرقاب من الرق ،

- اقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ،
- الوفاء بالعهد ،
- الصبر والتحمل فى أوقات الأزمات ، وعند وقوعها :

((ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون))(١) .

وبالوقوف عند كل خاصة من هـذه الخصائص . نجد : أن كل واحدة منها تعبر عن جانب فى انسانية الانسان ، وأن مجموعها يعبر عن الانسانية فى محيطها الرفيع .. ايمانا وعملا :

... فالايمـان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... ايمان بالانسانية فى بدايتها ، وتاريخ تطورها ، ورسالتها . فمن الله تبتدىء .. والى اليوم الآخر تصير . وبالملائكة ، والكتاب ، والنبيين .. يكمن تاريخ تطورها ورسالتها .

واذا وصل الانسان الى الايمان بالانسانية .. استهدفها فى تفكيره .. وأحس بها فى وجدانه ... وعبر عنها فى سلوكه .

ومن يصنع ذلك ، يكون قد ابتعد عن الحيوانية وعن الأنانية معا ، وانتقل بالفعل الى مجال الانسانية الخالصة .

وتعتبر هذه الخصيصة ، خصيصة الايمان بالله .. ركيزة وأساسا ، تقوم عليها الخصائص الأخرى الباقية التى سبقت فى وصف التقوى .. والتى جعلت معيارا للمفاضلة فى الانسانية بين انسان وآخر .

... وانفاق المال فى محبة للانفاق ورضاء نفس به فى أوجه الانفاق المحددة هنا .. دليل على نضوج الانسانية فى الانسان .

لأن الانسـان لا ينفق من ماله وهو محبب اليه الانفـاق ... وهو مستريح فى دخيلة نفسه .. فى سبيل الانسانية ودفع الأضرار والحاجات

---

(١) البقرة : ١٧٧

ممن هم معرضون للأضرار من الأفراد بحكم ظروفهم الاجتماعية ، التى قضت لسبب ما أن يكونوا أقل حظــا فى المال ... أو أقل استطاعة على السعى والمنافسة ، فى تحصيله .. أو أقل فى كسب النظرة الانسانية التى تهيىء لهم امكانيات أوسع فى المال ... لا يصنع ذلك الا وهو متجاوب تماما مع ايمانه بالانسانية ، فى ظل وسيطرة هذا الايمان عليه .

... والاتجاه الى الله فى الصلاة خمس مرات فى اليوم ، والقربى اليه باخراج الزكاة المفروضة .. أمارة على بقاء الايمان قويا بالانسانية ، وعلى أنه مستمر غير منقطع . وذلك بالتـالى دليل على « تقـدمه » ... وأنه يعيش فى الانسانية ومن أجلها ..

فتذكر الله فى العبادة هو .. تذكر فى واقع الأمر للانسانية فى نشأتها .. ومصيرها .. وتطورها .. ورسالتها .

فقد خلق الله الكون للانسان ، وخلق الانسان فيه ليكون صـاحب رسالة . ورسالته من أجل انسانيته .. فى سلامها وأمنها ، وفى نموه فى خصائصها ، حتى يحقق ميزته عن الحيوان الشريك له فى الحيوانية .. ويحقق سيادته :

عن طريق الفكر المتجرد فى العلم .. وعن طريق الوجدان الانســانى فى الاحساس الجماعى ،

وعن طريق الارادة فى السلوك المعبر عن الحكمة واختيار العقل ،

وليس عن دفع الغريزة وجبرها والزامها ..

... والوفاء بالعهد ، والصبر والتحمل مدة الأزمات وعند وقوعها ... يصور قمة ايمان الانســان بالانسانية .. لأن العهد هو للانســان . والأزمة أيضا بسبب الانسان .

فكونه يفى بعهده مع احتمال أن يشق عليه الوفاء ،

وكونه يصبر ولا يهرب من الحياة كلها فى مواجهة أزمة من شــأنها أن تشق وقد تمعن فى مشقتها بطول عهدها أو بنوعها .. لا يأتى الا ممن درب نفسه على المشقات وعلى تحملها ...

وليس ذاك الا المؤمن المضحى فى سبيل ايمانه ، كالجندى فى ميدان وهب حياته للدفاع فيه ، فلا يعود منه الا الى مجد الشـهيد فى قبره .. او الى مجد المنتصر فى ظفره :

ان الذى لايؤمن بالله ، وبالتالى لا يؤمن بالانسانية .. لا يتورط فى وفاء بعهد ، اذا ما شق عليه الوفاء به .. كما لا يقع فى أزمة .. أو يواجهها . لأن نفاقه أو ردته فى الايمان .. كفيل أحدهما بايجاد السبيل الذى يمنع مواجهته الشدة .. بل وقوعها .

ان ايمان المؤمن بالمثل والقيم العليا ... ان ايمانه بالله وبالانسانية .. طريق الى الحرج والعنت والمشقة فى الحياة ..

ان المؤمن يعيش بايمانه فى راحة ضميره .. ولكن فى عنت وحرج ى الحياة مع الآخرين .. من أجل هذا الضمير ..

وان النفاق هو أقصر الطرق .. وأيسرها لتفادى العقبات والأزمات .. وانه أيسر الطرق وأقصرها كذلك فى تحصيل مطالب الذات .. وانه أيسرها وأقصرها أيضا فى الاستمتاع بمادية الحياة .

... ومن هنا : كان المنافقون كثرة ، والمؤمنون قلة .. ومن هنا : كان صراع الحياة الانسانية .. أقسى أنواع الصراع فى الوجود كله .

وهذا الصراع أمر حتمى على البشرية .. لأنه يستحيل أن يكون جميع الناس مؤمنين .. كما يستحيل أن يكونوا كلهم منافقين . والايمان ، والنفاق ، لا يدخل أحدهما فى دائرة اختيار الانسان أيضا . بل المؤمن قدر عليه من تكوينه ، وعوامل نشأته .. أن يندفع الى الايمان .. كما قدر على المنافق من تكوينه وعوامل نشأته أن يستجيب الى النفاق .

والمؤمن بتكوينه ، وان كان مقدورا .. قوى .

والمنافق بتكوينه ، وان كان مقدورا .. ضعيف .

وهنا لا يوجد تكافؤ بين الاثنين .

وهنا الغلبة والنصر أخيرا للمؤمن . لأن الضعيف .. أسرع فى الانطواء وأقل جلدا واحتمالا فى الاستمرار ... ولأن المنافق يرى قدرته فى ضعفه ، ووصوليته فى انطوائه وفى عدم معارضته .. ويرى حياته فى تقلبه ذات اليمين وذات الشمال .

وهكذا : الآية القرآنية الأولى هنا : تحدد الخطوط العامة لدين الانسانية .

... تحدد مبدأ المساواة فى الاعتبار البشرى ،

... ومبدأ الاختلاف فى الخصائص .. كأساس للألفة والتعارف .

... ومبدأ التفاضـــل فى القيمة .. على أســـاس من النمو ومدى البلوغ فى مستوى الانسانية ..

والآية الثانية توضح معيار التقييم والتفاضل . وهو معيار صادق فيما يعبر عنه ... جوهره : الايمان بالله وبالانسانية .

... ومظهره : الصور العملية التطبيقية لهذا الايمان .

وهى صور لا تكذب ولا تخدع .

... نداء الاسلام الى الانسانية :

والاسلام ، باعتبار كونه رسالة الألوهية ، فى كل عهد ولكل رسول أرسل .. عندما أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم طلب الى أتباعه :

... أولا : أن يستوعب ايمانهم جميع الرسالات السابقة . لأنهـــا جميعها تحكى الاسلام .. والاسلام دين الله ، وليس دين رسول خاص :

((انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأســـباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا . ورســـلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما))(١) .

... ((قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأســـباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الاســـلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين))(٢) .

... ثم طلب ثانيا الى غير الأتباع له :

أن يحتكموا هم والأتباع جميعا الى جوهر الرسالة الالهية .. والى أصولها العامة الثابتة التى لم تتغير اطلاقا . فان حكيت متغيرة ، كانت محرفة يقينا . لأن الرسالة عندئذ ستفقد قيمتها فى التوجيه :

((قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبـــد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))(٣) .

---

(١) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤ .   (٢) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) آل عمران : ٦٤ .

... فوحدانية الله فى العبادة ... أصل فى رسالة الله لا يتغير ..

وهى الأساس لالتقاء البشرية وعدم تفرق شعوبها ...

وأساس كذلك فى استقرار الحرية الفردية ، والحرية الجماعية .

فالاعتقاد فى الايمان بالله : بأنه واحد لا شريك له .. يحمل على الوحدة فى التوجيه والاتجاه ... والكل يتجه نحو وجهة واحدة ... والكل يتحرك فى ظل توجيه واحد .

وعناء البشرية .. هو فى فرقتها .. وفى تنازعها ... واضطرابها .. هو فى تعدد توجيهها .

والقيم الانسانية :

ليس لها الا مدلول واحد ..

وليس لها الا خط سير واحد ...

وليس لها فى تحققها وتطبيقها الا أمارة واحدة .

ويوم تتفرق البشرية وتختلف ، بالاتجاه .. يوم تتنازع فى مفهوم القيم ... وفى السبيل الموصلة اليها وفى تطبيقها .

واتخاذ الناس بعضهم لبعض أربابا من دون الله ... لا يدل على انقسام البشرية الى غير عودة الى وحدة فى الاتجاه فحسب .. وانما يدل قبل ذلك على التراجع فى مستوى البشرية .

فعبادة انسان انسانا مثله .. هى عبادة مساو لمساو آخر ... نظيره فى الاعتبار .

ولا يكون ذلك ... الا اذا فقد العابد شعوره بقيمته ... فانزل نفسه منزلة أدنى ... أو تصور فى المعبود ما ليس له .. فرفعه الى ما فوق مستواه .

وهذا يدل : على أن هناك عنصرا أجنبيا غير انسانى أثر فى التقدير . والانسان بذلك غير متحرر ... وهو واقع تحت تأثير وهم .. أو خوف .

وفرد يذهب به اعتقاده الى عبادة مساو له ... لا يتمتع بحريته الفردية فى التقدير والحكم .. ومجتمع يتكون من مثل هذا الفرد .. مجتمع تنقصه أخص ظاهرة من ظواهر الانسانية .. وهى : الحرية فى وزن الأمور ... والتصميم على تنفيذ الراجح منها .

... ما يعلمه الاسلام :

اذا قرىء قوله تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. »(١) .

... يتضح أن تعاليم الاسلام .. تصوب أهدافها نحو الانسانية فى تحقيق أرفع صورة لها .. وفى دفع ما يسقطها عن مستواها .

تطلب هذه الآية :

العدل ،

والاحسان ،

والعدل : هو اعطاء حق فى مقابل حق ... هو توازن بين الأخذ والعطاء .. وهو سمة أولى على تحقق معنى الانسانية فى الانسان ... وعلى انتقاله فى تصرفه من تحكم الأنانية الى الاحساس الجماعى .. والى التجاوب فى العلاقات بين أفراد المجتمع .

والاحسان : هو اعطاء أكثر فى مقابل أقل ، أو فى غير مقابل أصلا .. وهو بذلك تعبير أكثر وضوحا عن انسانية الانسان من العدل . وأخص ما فيه : أن العدل لوجود معنى التقابل فيه ... لا ينطوى على اختيار الانسان وحريته .. مثل ما ينطوى عليه الاحسان .

واختيار الانسان وحريته معادلة .. تساوى الانسانية فى جوهرها الأصيل :

● فدفع الاعتداء بمثله .. عدل : **« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٢) .. « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٣).**

... ولكن الصفح والعفو عند المقدرة على رد الاعتداء ... احسان : **« فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين »(٤) .**

● واخراج الزكاة .. عدل ، لأنه حق مفروض للآخرين : **« انما الصدقات للفقراء والمساكين ... »(٥) .**

---

(١) النحل : ٩٠ ،
(٢) البقرة : ١٩٤
(٣) الشورى : ٤٠ .
(٤) الشورى : ٤٠ .
(٥) التوبة : ٦٠ .

... ولكن الانفاق من المال بعدها ، لسد حاجات المجتمع وافراده ... احسـان : « **وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضهـا السموات والأرض أعـدت للمتقين . الذين ينفقـون فى السراء والضراء والكـاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين** »(١) .

● وعدم اعطاء المال للسـفيه ، مع التكفل برزقه ومعيشته منه .. عدل ... « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعـل الله لكم قيـاما وارزقوهم فيها واكسوهم ...** »(٢) .

... ولكن اشعاره بكرامته الانسـانية ... احسـان : « **وقولوا لهم قولا معروفا** »(٣).

● واعطاء المطلقة التى لم يدخل بهـا نصف صـداقها ... عدل : « **وان طلقتموهن من قبل أن تمسـوهن وقد فرضتم لهن فريضـة فنصف ما فرضتم** »(٤) .

... ولكن العفو من الزوجة عن النصف الذى هـو حق وعـدل لها ... أو العفو من الزوج وترك المهر كله للزوجة عندئذ ... احسـان : « **الا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح ، وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم** »(٥).

● واخذ جزء من مال اليتيم ، لقاء مباشرة استثمار المال له والحفاظ عليه .. عدل ... ولكن رعاية ماله فى غير مقابل ... احسـان : « **ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف** »(٦) .

● ودفع الدية الى أهل المقتول قتلا خطأ من المؤمنين ... عدل : « **ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله** »(٧) .

... وتنازل الأهل عن هذه الدية ... احسان : « **الا أن يصدقوا** »(٨).

واعطاء الاحسان ... هو من انسانية الانسان . وليس بلازم لذلك أن يترجم فى مال ... هو من شعوره العميق بمعنى الانسـانية المشتركة بينه وبين غيره .

---

(١) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤
(٢) النساء : ٥
(٣) النساء : ٥
(٤) البقرة : ٢٣٧
(٥) البقرة : ٢٣٧
(٦) النساء : ٦
(٧) النساء : ٩٢
(٨) النساء : ٩٢

وأمر الاسلام بالعدل ، والاحسان .. تكليف للفرد بمباشرتهما من نفسه ، وبوحى مشيئته واختياره .. واتيان كل فرد لهما .. ليس عن طريق الالزام الخارجي ، خشية أن يصير هذا الالزام الخارجي دستورا للعمل فى حياة الأفراد والمجتمع . وبذلك يضعف ضمير الفرد فى الدفع أو يتوقف ، ويكون الدفع كله للعامل الخارجى .. وعندئذ تتحرك حياة الانسان بغير انسانيته ... تتحرك بغير حريته ومشيئته ..

ووضع الالزام الخارجي للتنفيذ فى الاسلام .. هو وضع استثنائى .. يلجأ اليه اذا اقتضت ضرورة بقاء المجتمع وصيانته من التدهور .. والتدخل فى حمل الأفراد على أداء ما كلفوا به .

والمجتمع الحديث اذا صاغ تعاليم الاسلام فى قوانين ، وألزم اتباعها بالسلطة التى خصصها للتنفيذ .. لا يكون قد حقق غاية الاسلام . اذ غاية الاسلام الأولى مباشرة الانسان الحياة الانسانية بالمشيئة والاختيار .. وبالدفع الذاتى عن طريق الايمان بالله .

... وتطلب الآية أيضا . ايتاء ذى القربى .. بجانب ما تطلب من عدل واحسان ، فى السلوك الانسانى . وايتاء ذى القربى .. قصد به تدعيم أواصر الصلات فى الأسرة الواحدة .. كى يكون هناك تجاوب نفسى بين أعضائها وصفاء لا يشوبه حقد : ضعيف على قوى .. ولا فقير على غنى .. ولا مريض على صحيح .

والأسرة القوية هى أساس المجتمع القوى ، ومظهر لحضارته الانسانية .

واذا كانت الحضارة الصناعية استتبعت تفكك العلاقات الأسرية ، تحت تأثير العامل الاقتصادى فى استقلال أعضائها . فان ذلك لا يعنى : أن تفكك العلاقات الأسرية ... سمة للتقدم الانسانى والحضارة الانسانية . اذ أمارة التقدم الانسانى وبالتالى تقدم الحضارة الانسانية .. هى فى : « الاحساس الانسانى الجماعى الذى جعله « اوجست كونت » : دليلا على التحول : من الغريزة الى العقل والعلم .. ومن الحيوانية والأنانية الى الانسانية .

واذا كانت الحضارة الصناعية مظهرا لتقدم العلم فى الجانب المادى للحياة .. فليس من الضرورى قطعا أن تكون آية رقيه فى مباشرة الانسانيه وتطبيق خصائصها فى المجال السلوكى والعملى ..

... وبالعدل .. والاحسان .. وايتاء ذى القربى .. يتحقق التحول

فى الفرد من حيوان تطغى عليه الغرائز .. الى انسان يمارس بعقله وقلبه خصائص الانسان .

ثم ما جاء فى بقية الآية من النهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى .. ان هو الا تأكيد للبقاء فى دائرة الانسانية .

اذ تجنب الانسان ما هو مستقبح فى التصرف ، ومنكر فى السلوك .. فضلا عن تجنب العدوان والظلم تحت دفع الضمير والايمان بالله .. يزيد فى توجيه الاهتمام الى مباشرة العدل والاحسان ، اللذين هما .. الظاهرتان الدالتان على وجود الانسان بالفعل فى محيط الانسانية ، وتحققه فيه ..

وان كان « كونت » يؤثر التعبير « بالاحساس الجماعى » كآية على التحول فى الانسان بجانب العلم .. فالاسلام يؤثر التعبير : ب « الفؤاد » عن هذا الاحساس .. وبالسمع والبصر .. عن العلم .

والعلم بمفهومه الخاص .. هو ما كانت وسيلته الملاحظة والتجربة .. والسمع والبصر هما طريق هذه الملاحظة والتجربة .

والاسلام ، بقدر ما يعيب على من لا يشغل فؤاده بالايمان بالله دفعا نحو السلوك الانسانى السوى .. يعيب على من لا يستخدم سمعه وبصره فى الوصول الى الحق والحقيقة . اذ كل من الأول والثانى معطل لانسانيته من النمو .. ولذاته من التحول .

واذ يقول القرآن فى آية أخرى :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون »(١) .

... يريد أن يلفت نظر الانسان الى عناصر انسانيته فى ذاته .. أو الى مصدر انسانيته على الحقيقة ، ويشير الى أن : اعداد الانسان بها نعمة كبرى تستحق الشكر والثناء باستمرار . والشكر والثناء هنا هو : فى ممارستها واستخدامها .. ليكون الانسان فى معرفته وعلمه ، غير خاضع لخرافة ، ولا لتقليد ، أو عرف .. وليكون فى سلوكه غير متأثر بغرائزه وأنانيته ..

***

واذا بدا الاسلام الآن .. كنظام أو كمجموعة من المبادىء على نحو أنه :

---

(١) السجدة : ٩

● ينظر الى الناس جميعا نظرة مساواة فى الاعتبار الانسانى ،

● ويفاضل بين افرادهم بالمدى فى المستوى الانسانى وحده .. وليس بالعرض : من مال ، أو جاه ، أو سلطة ،

● ويأمر وينهى ، بما يعين الانسان على مباشرة انسانيته .... يأمر بالعدل ، والاحسان ، وينهى عما يعوق ذلك : من الفحشاء والمنكر والبغى ... كى يتيح للاحساس الجماعى أن يقوى ويتأكد ،

● ويهتم بمصادر الانسانية فى الانسان ، ويطلب من الانسان : ان يشكر الله بالمباشرة والتطبيق على نعمة الفؤاد ، كمصدر للايمان بالله والانسانية .. على نعمة السمع والبصر كمصدر للعلم نحو الحق والحقيقة ،

● ورسالته هى : رسالة الله للانسانية ، منذ وجد الانسان على هذه الأرض : لا تفرق بين واحد وآخر من الرسل .. ولا كتاب دون كتاب أنزل . ونداؤها هو : نداء الانسانية جميعها . وتعاليمها وفق الطبيعة البشرية فى خصائصها ... فى نظرته ... فى مقاييسه ... فى مبادئه وتعاليمه .. فى مطلوبه : ينشد الانسان فى انسانيته .... ينشد تحوله ونقلته : من كائن غرزى أنانى . الى كائن انسانى جماعى .

.... واذا بدا الاسلام الآن على أن له هذه الخصائص .. فتلك صفات دين الانسانية . على أنه بالاضافة الى ذلك ، باعتباره أنه رسالة الله .. يتميز :

أولا : بالايمان بالله ، وهو سر الدفع ، الذى لا ينفر ولا يضعف ، للانسان نحو انسانيته .

ثانيا : بالتركيز على مشيئة الانسان واختياره ، فيما يعمل ويتصرف ويسلك ... ومن أجل ذلك يرى الحرية الانسانية هى الانسانية نفسها .. ولا يرى فرض الالزام الا عند الضرورة .

ثالثا : بالايمان باليوم الآخر ، لا خداعا ولا تغريرا بالانسان .. ولكن لتحقيق انسانية الانسان فى حياته الدنيا .

.... فعن طريق الايمان باليوم الآخر ، ينقل بعض رغبات الانسان من هذه الدنيا ويرجأ الى الدار الآخرة .. تخفيفا من التزاحم على متع هذه الحياة . فاذا خف التزاحم .... كان هناك مكان للعدل .. وتحقق هذا

العدل عن مشيئة واختيار ، وليس عن قهر والزام ... وبالتالى : كان هناك مكان للمحبة والتواد بين الأفراد .

واذ يقول القرآن فى بعض آياته الأخرى :

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصـــــلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون »(١) .

... اذ يقول القرآن ذلك ... يصور حياة المؤمنين بالاسلام :

... فيضعهم فى تحقيق الرغبات ... بين ما فى هذه الدنيا وما فى الآخرة ، لا تنفيرا من الدنيا ... ولكن تقليلا من التكالب والتهافت والتزاحم على متعها .

فان هم خفوا منها كان تخفيف الانسان صاحب المشيئة ... كان تخفيف الراضى ، وليس تخفيف المبعد أو المكره .

... ثم يصفهم بأنهم :

يتوكلون على ربهم ، مستعينين به فى أعمـــالهم وسعيهم . فان هم توكلوا ... أخلصـــوا فى العمل والسعى وبذلوا غاية الجهـــد . لأن نفع التوكل على الله ... رهن باستنفاد الطاقة البشرية ، وممارســـة العزم الانسانى فى مباشرة العمل :

... كما وصفهم بأنهم :

يجتنبون كبائر الاثم والفواحش . وهذا كاف فى الأمارة على السلوك الانسانى والاحساس الجماعى . اذ يستحيل على انسان : أن يترك كل خطأ ، مهما كان شأن ايمانه .

لأن الانسان صاحب الغريزة والعقل ، وصاحب الحيوانية والانسانية معا .. يختلط بعضهما ببعض .

... وبأنهم : يغفـــــرون عند الغضب . وتلك أمارة أخرى على الاحسان ، الذى هو غاية الانسانية فى الانسان ... وبأنهم قد استجابوا لما أمر به الله ونهى عنه ، وبالأخص ما أمر به من : اقامة الصـــــلاة ،

---

(١) الشورى : ٣٦ ــ ٣٩

والشورى فى الأمر ، والانفاق من المال . اذ الصلاة والمداومة عليها رمز الصلة فى الايمان بالله . ومباشرة الشـورى والانفاق كلاهما أمارة على التخلص من الأنانيـة . فلا اسـتبداد فى الرأى ، ولا تقتير فى المـال . والتخلص من الأنانية عنوان الاحساس الجماعى .

... كما وصفهم أخيراً :

بأنهم اذا أصـابهم البغي .. هم ينتصرون . فوصـفهم مع كونهم انسانيين فى المعاملة يغفرون عند الغضب ، ولا يعتدون ولا يظلمون .. واذا وقع عليهم ظلم وعدوان ... هم يدفعونه بقوة ايمانهم ، وبقوتهم المادية واعدادهم المعنوى .... لا يتوانون ولا يستسلمون .

... فالمؤمنون بالاسلام ، كما تصورهم هذه الآيات ، يكونون :

مجتمعا انسانيا فى سلوكه .

وفى معاملاته ،

وفى المحافظة على بقائه .

... ايمانهم بالآخرة .. ليدفع نشاطهم فى هذه الدنيا قدما ، وليدفع بعضـا منهم من تحصيلها ، على حسب ما يهوون ويشـتهون ... وليس للتغرير بهم وخداعهم .

... وتوكلهم على ربهم : لا لتعطلهم وعدم سـعيهم .. وانما لزيادة حفزهم على العمل المرضى ... وعلى السعى الانسانى الكريم . والا لو كان التوكل هو : التعطل ... ففيم يدافع المؤمنون عندما يقع عليهـم الظلم ؟ ... وفيم يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ؟ ... وفيم ينفقون من أموالهم ؟

... وتجنبهم كبـائر الاثم والفواحش وكذا انفاقهـم من أموالهم يتطلب ارادة وعزما قويا .

... والمتعطل هو متعطل أول الأمر .. من الارادة .. قبـل تعطله من العمل .

وهذه الخصائص التى للاسلام كدين سماوى ، بجانب صـلاحيته للانسانية بمبادئه وبنظرته ، وبقوى الدفع فيه ... تحول دون أن يكون هناك بديل عنه : من صنع الانسان .... كما طلب « كونت » .

فاذا احتاج التوجيه الانسـانى الى دين للانسانية ، وهو فى حاجة قطعا .. فليس ذلك الدين .. الا : الاسلام ... لأنه رسالة الله .. لم تحرف ولم تبدل .

وما لله فهو للناس كافة ، لأنه وحده رب الناس جميعا .

* * *